قالت العرب

ليس الحاسد هو الذي يطمع أن يساويك بأن يرقى إليك، بل هو الذي يريد أن تساويه بأن تنزل إليه!

عباس محمود العقاد

المشهد

العدد 344 السنة الرابعة عشرة- الخميس 15 يناير 2026م - 28 رجب 1447هـ

الدولة تدجن معرض الكتاب..وهذه هى الأسباب

من منصة هيكل إلى قوائم الأمن.. ومن أخطر ساحة ثقافية إلى فعالية بلا معنى

لم يمت معرض القاهرة الدولى للكتاب فجأة، ولم يغلق بقرار.. ولم تعلن الدولة نهاية دوره رسميا، مات أو شارف على الموت ببطء وبهدوء وبطريقة منظمة.. مات حين قررت السلطة أن الثقافة لم تعد مساحة يمكن المخاطرة بها، وأن الكتاب لم يعد أداة وعي.. بل احتمال فوضى، مات حين تحول من ساحة عامة مفتوحة للصدام الفكري.. إلى فعالية منضبطة تدار بمنطق "تقليل الخسائر"، لا توسيع الأسئلة..

السؤال بعد ٥٧ عاما ليس: ماذا قدم المعرض؟ بل: هل خافت الدولة منه؟

لم يكن بريئا أبدا

منذ تأسيسه عام ١٩٦٩.. لم يكن معرض القاهرة الدولى للكتاب مشروعا ثقافيا بريئا أو محايدا.. الدولة التى أنشأته، عبر ثروت عكاشة لم تفعل ذلك حبا فى القراءة المجردة.. بل إيمانا بأن الثقافة سلاح.. فى ذلك الوقت كانت الدولة ترى أن السيطرة على المجال العام لا تتم فقط بالقوانين والأجهزة بل بصناعة الوعى نفسه...

لكن الفارق الجوهرى أن الدولة وقتها لم تكن تخشى الصدام الفكري.. كانت واثقة من سرديتها وقادرة أو هكذا ظنت على احتواء الخلاف بدل دفنه.. لذلك ولد المعرض مرتبطا بالسلطة، لكنه لم يكن مؤمما أمنيا... كانت هناك مساحة ولو محسوبة للاختلاف الحقيقي..

المعرض أخطر من الشارع

فى السبعينيات والثمانينيات.. تحول المعرض إلى ما يشبه البرلمان الموازي.. قاعات مكتظة ونقاشات حادة وجمهور لا يأتى للتفرج بل للمشاركة.. محمد حسنين هيكل لم يكن ضيف شرف بل صوتا سياسيا يشرح ويفكك ويغضب.. نزار قبانى لم يكن شاعرا رومانسيا فقط.. بل رجلا يقول ما لا يقال عن السلطة والهزيمة والمرأة والدولة.. محمود درويش وسميح القاسم حملا القصيدة معنى المقاومة لا الزينة الثقافية....

الأهم أن هؤلاء لم يكونوا "مناسبين".. كانوا خطرين...

والخطر هنا هو جوهر المسألة..

مناظرات لم تتته بكارثة

حين استضاف المعرض مناظرات الشيخ محمد الغزالى مع فرج فودة.. لم يكن ذلك مجرد حدث ثقافي.. كان اختبارا مباشرا لعلاقة الدولة بالدين.. وبالاختلاف وبحدود المسموح... مناظرات كهذه فى سياقها كانت قنابل فكرية.. لكنها خرجت إلى العلن أمام جمهور واسع بلا رقابة مباشرة وبلا محاولة لقتل الفكرة فى مهدها....

لم يكن المعرض محايدا.. لكنه كان مساحة صدام حقيقية.

وهذا تحديدا ما جعله حيا...

حين كانت الدولة تحضر... ولا تخنق

كان افتتاح المعرض بحضور رئيس الجمهورية رسالة واضحة الثقافة شأن سياسي.. لم تكن الدولة تختبئ خلف موظفين.. بل تواجه، كان النقاش يدور علنا وكانت الكتب تقرأ سياسيا لا كمنتج ثقافى معزول... فى تلك اللحظة كان المعرض يؤدى وظيفة مزدوجة..

– يتيح للدولة عرض سرديتها

– ويتيح لخصومها اختبار تلك السردية علنا.. اليوم، اختفت هذه الثنائية.. لم تعد الدولة تواجه... بل تدير...

التحول لم يكن فجائيا.. لكنه كان منهجيا.. مع تقلص المجال العام.. ومع صعود منطق "الأمن قبل السياسة.. تغيرت نظرة الدولة إلى الثقافة.. لم تعد آداة وعي.. بل احتمال إرباك.. لم يعد المثقف شريكا مزعجا، بل خطرا يجب تحييده... وهنا تغير كل شيء...

من الصدام إلى الإدارة

لم يلغ الجدل بقرار... بل قتل عبر الإدارة، اختيار موضوعات "آمنة".. اختيار متحدثين "مضمونين".. و تقديم ندوات بلا أسئلة حقيقية.. وتحويل الثقافة إلى نشاط بروتوكولي...

هذه ليست مصادفة بل سياسة ثقافية غير معلنة...

الضيف المناسب.. المثقف الذى لا يجرح أحدا

فى معرض اليوم.. لا يستبعد المثقف لأنه ضعيف بل لأنه قوى أكثر من اللازم.. لأن لديه ما يقوله خارج النص ولأن حضوره قد يجذب جمهورا، والجمهور خطر.. فتحول المثقف من فاعل عام إلى ديكور.. من صوت إلى اسم فى برنامج.. من شخص ينتظر كلامه إلى شخص لا فرق بينه وبين غيره.. وهكذا، ماتت الندوة قبل أن تبدأ....

الخطاب السهل يقول إن الناس لم تعد تقرأ... لكن الواقع أكثر قسوة، الناس لم تعد تدعى للنقاش...

الجمهور الذى كان يتدافع لحضور مناظرة أو ندوة سياسية أو فكرية، لم يختف فجأة.. هو ببساطة أدرك أن ما يقدم له الآن بلا مخاطر وبلا أسئلة وبلا معنى... الجمهور لا يهرب من الثقافة.. بل يهرب من التفاهة المقنعة باسم الثقافة...

المنع

منع الكتب ودور النشر ليس جديدا على تاريخ المعرض، الجديد هو طبيعته.. فى السابق كان المنع حدثا استثنائيا يثير جدلا ويناقش علنا ويكشف حدود السلطة.. اليوم يتم المنع بصمت وضمن منطق "الاختيار".. لا الحظر...

لم يعد السؤال.. لماذا منع هذا الكتاب؟

بل: لماذا يسمح بهذا النوع فقط من الكتب؟

وهذا أخطر بكثير....

ما جرى لمعرض الكتاب ليس أزمة تنظيم ولا مشكلة ميزانية.. ولا تراجع اهتمام.. هو انعكاس دقيق لتحول الدولة نفسها.. من دولة تخوض صراع الأفكار إلى دولة تخشى الأسئلة..

الثقافة.. فى هذا السياق لم تعد ساحة تفاوض بل ملف يجب تحييده.. والمعرض الذى كان أخطر ساحة ثقافية.. تحول إلى حدث لا يزعج أحدا... ولا يهم أحدا...

السؤال الحقيقى ليس إن كان المعرض "انحرف".. بل إن كان مسموحا له أصلا أن يستمر كما كان... هل يمكن لمعرض كتاب أن يكون حيا فى سياق سياسى يخاف من النقاش؟ هل يمكن للثقافة أن تلعب دورها إذا أديرت بمنطق أمني؟

الإجابة غير مريحة...

معرض القاهرة الدولى للكتاب لم يفقد جمهوره ولم يفقد كتبه، بل فقد وظيفته.. لم يعد مساحة عامة، بل واجهة.. لم يعد خطرا، بل مطمئنا. ولم تعد الثقافة فيه سؤالا.. بل عرضا..

والمشكلة ليست فى المعرض وحده، بل فى دولة قررت فى لحظة ما أن الكتاب أخطر مما ينبغي...

عمار على حسن: مساحة باردة

الأديب والمفكر د. عمار على حسن يقدم قراءة قاسية لتحولات معرض القاهرة الدولى للكتاب، رافضا توصيفه كـ«مساحة آمنة»، ومعتبرا أن ما جرى أخطر من ذلك بكثير...

«هو لم يتحول إلى مساحة آمنة بل إلى مساحة باردة متكلسة مفلسة راكدة، لأن من قبل كانت الدولة وكان القائمون على المعرض لا يتعاملون معه باعتباره مجرد سوق للكتب، إنما هو مكان يصنع فرصا لمناقشة قضايا مهمة تشغل الجمهور وتشغل الرأى العام وتعرض رأى وموقف المثقفين من القضايا التى يمر بها مجتمعهم»..

ويرى عمار أن التراجع لم يكن صدفة، بل نتيجة مسار طويل بدأ مع القلق من دور المثقفين، وتهميشهم، ثم استقطاب بعضهم ليصبحوا مجرد أبواق للسلطة، وهو ما انعكس تدريجيا على المعرض نفسه...

«مع تراجع دور المثقفين والقلق منهم وتهميشهم واستقطاب بعضهم ليصبحوا مجرد أبواق للسلطة، كان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على المعرض، أن هذا الدور يتم خفضه تدريجيا إلى أن يموت، وأحد مظاهر هذا الموت هو خلو المعرض من مناقشة قضايا الناس»..

ويؤكد أن هذا التحول لم يكن نابعا من تغير طبيعى فى دور المثقف، بل نتيجة تدبير سياسى وأمنى واضح...

«هذا التحول بالقطع كان بتدبير من أعلى.. من الطبيعى أن المثقف يريد لدوره أن يستمر ويريد أن يكون فاعلا اجتماعيا ويشتبك مع قضايا مجتمعه، لكن السياق السياسى والأمنى لا يسمح بذلك، لذلك حدث هذا التحول من معرض كان شعلة نشاط ثقافى إلى مجرد سوق للكتب»..

ويربط عمار بين هذا التحول وتراجع صورة المثقف فى المجتمع، بعد أن فقد مكانته كصوت عام معبر عن هموم الناس...

«قطعا هذا أثر تأثيرا كبيرا جدا على دور المثقف وعلى مهمته وعلى صورته وإدراك المجتمع العام له. الآن.. المثقف فى الغالب العام لا يحظى باحترام، تحول إلى مجرد رجل محترف الكتابة ومحترف الخطابة أو محترف التعبير، لكن ليس ذلك المثقف الذى إذا نطق نطق بهموم المجتمع»...

وفيما يتعلق بالرقابة، يرى عمار أن المنع لم يعد فقط قرارا مباشرا، بل منظومة كاملة تبدأ من النشر نفسه...

«الرقابة على الكتب أصبحت شيئا معروفا، وأصبحت ظاهرة تبدأ من سعى دور النشر إلى الحصول على رقم إيداع، وصولا إلى صدور الكتاب والنظر إليه من قبل السلطة العامة، حتى عرضه فى معرض الكتاب لا يعنى بالضرورة أنه قد بات محميا من المصادرة أو من الاستبعاد الصامت أحيانا»..

ويشير إلى أن الرقابة الأخطر لم تعد خارجية فقط، بل تسللت إلى وعى الكتاب أنفسهم...

«الرقابة هبطت أكثر من ذلك إلى أقلام الكتاب أنفسهم، يعنى الأغلبية تراعى إذا جلست للكتابة كل هذه المشكلات التى يمكن أن يسببها لهم مقال أو قصة أو رواية أو كتاب نتيجة ضيق حرية التعبير إلى أدنى حد والنظر بارتياب إلى الثقافة»....

ويكشف عمار عن استبعاده الشخصى من المعرض منذ تسع سنوات، معتبرا أن ذلك جزء من سياسة أوسع لإخراج الأصوات المزعجة من المجال العام..

«أنا مستبعد من المعرض منذ تسع سنوات.. والسلطة السياسية حريصة على عدم وجود الأصوات التى قد تسبب لها نوعا من الإزعاج ولديها قبول جماهيرى أو مشتبكة مع القضايا العامة.. ولذلك كل من يحمل هذه الصفات يستبعد إلى حد كبير من المعرض»...

ويؤكد أن هذا الإقصاء يتم بهدوء، دون صدام علني...

«الدولة تخرج هذه الأصوات من المشهد تدريجيا وترید أن تخرسها، فلا تدعى لندوات ولا مؤتمرات ولا ورش عمل ولا تشارك فى الأنشطة العامة، والمعرض أحد منابرها»...

ويرى أن وسائل التواصل الاجتماعى لعبت دورا فى كسر هذه العزلة... «لولا وسائل التواصل الاجتماعى لصار الإبعاد قاسيا جدا... وسائل التواصل الاجتماعى وفرت إلى حد كبير نوافذ ليطل منها هؤلاء على الجمهور العام»...

ويعتبر أن أخطر أشكال الرقابة هى الرقابة الناعمة المتحايلة.. «الرقابة المتحايلة أكثر قسوة وأمضى أثرا من الرقابة الصريحة... لأنها تصل إلى أهدافها دون أن تصير قضية عامة أو تصنع تكتلا من قبل المثقفين ضدها»...

ويختتم عمار شهادته بوصف مؤلم لتحول المعرض من حدث يشتبك معه المجتمع كله إلى فعالية تدار فى الظل.

«المعرض كان فرصة سانحة على مدار سنوات طويلة لتلاقى المثقفين... وكان يتحول فى حقيقة الأمر إلى أيام يشتبك فيها المجتمع المصرى كله حول الثقافة.. الآن المعرض يجرى فى أجواء من التكتم والسرية وكأنه فضيحة... ازداد جمالا من ناحية الشكل لكنه فقد الكثير من روحه ومضمونه ومهمته ودوره»...

د. مصطفى الفقي:

كان متنفسا عن تحولات معرض القاهرة الدولى للكتاب قال المفكر السياسى د. مصطفى الفقي:

أرتبطت علاقتى بمعرض القاهرة الدولى للكتاب منذ كنت سكرتيرًا لرئيس الجمهورية للمعلومات فى مطلع ثمانينيات القرن الماضي، وشعرت دائمًا أن المعرض كان يمثل متنفسًا لأصحاب الرؤى والأفكار فى مواجهة ما يدور حولنا إقليميًا ودوليًا. وقد أسهمت ندوات مع الكتاب التى كنت أحد المشاركين فيها بقوة، من خلال لقاء فكرى سنوي، على استحضار الرؤية الشاملة للمستقبل عبر الحوار الفكرى بين المثقفين الكبار، مصريين وعربًا، والرغبة الدائمة فى الحضور الحقيقى أمام زائر المعرض من كل مكان...

وعلق مصطفى الفقى قائلا: «لكننى لاحظت فى السنوات الأخيرة أن الأمر قد اختلف، وأصبح شراء الكتب أو اقتناؤها محدودًا، وأصبح المعرض مناسبة اجتماعية أكثر منها ثقافية، وتدور المشتريات حول بعض السلع التى لا علاقة لها بالثقافة والفكر. وأيقنت حينها أننا بحاجة إلى مراجعة حقيقية لدور المعرض حتى يعود إلى أصله ويقترب من الأسباب التى أدت إلى قيامه.. المثقفون لا يرتادون المعرض فى الغالب، فالمعرض قاصر على السيدات والأطفال والأسر التى تخرج فى نزهة يومية، والتجمع البشرى اللطيف، لكن لا يوجد دافع حقيقى لإثراء المعرض وتأكيد قيمته من خلال الكتب الجديدة والأفكار المتعددة، رغم أن الدولة حاولت إيجاد بدائل من خلال الموقع الذى نقل عدة مرات. أنا أذهب الآن إلى موقع المعرض فى ثالث موقع يشهده منذ بدايته، التى أعرفها شخصيًا، وبالتالى الدولة تحاول توفير المناخ الذى يؤدى لتحقيق هذا الهدف، لكنه لا يتحقق بالكامل».

وأضاف: «نأمل أن يكون معرض الكتاب مثل معارض كبرى فى العالم، مثل معرض فرانكفورت، بندواته الكبيرة، وحواراته الحرة، وأفكاره الجديدة، حتى يصبح كما كان الهدف من إنشائه: منارة أو مركز إبداع.. إذا كانت الحاجة أم الاختراع، فإن الحرية هى أم الإبداع، وكان المعرض يوفر أحيانًا مساحة من الحرية لا بأس بها، نرجو لها أن تزدهر وتتنفس وتزداد».

واستطرد الفقى موضحًا: «الرئيس مبارك كان يشجعنى شخصيًا ويطلب منى الذهاب إلى ندواتى فى المعرض سنويًا، ويلتقى شخصيًا بكبار الكتاب والمفكرين مثل أنيس منصور ومحمد سيد أحمد ولطفى الخولى وغيرهم، فى حوار حر ومفتوح فى موقع المعرض ومكانه. كانت هناك حتى طرائف ونوادر كثيرة أحتفظ بها من هذه اللقاءات المفتوحة. كان المعرض متنفسًا، ويعطى مساحة للحرية قد لا تكون مسموحا بها فى باقى منتديات الدولة، لكنه كان يعتبر شيئًا له خصوصية فى هذا النحو».

وقال أيضًا: «دور المثقف والجمهور مع الدولة مهم. الدولة تريد مثقفا واعيا يشارك فى البناء، والرئيس يؤكد على مفهوم الوعي: فكرة الوعي، الوعى بالأشياء، الوعى بفهم التاريخ، الوعى بالدور الثقافي. لكن الأجيال الجديدة انصرفت عنها، وساهم فى هذا التقدم التكنولوجى فى السوشيال ميديا، التى اختطفت جزءا مهما من المساحة التى كانت متاحة للمعرض فى عقل الشباب بالذات... المسألة اختلفت اختلافا كبيرا، ولا بد أن تعود الأمور إلى نصابها، بالتأكيد على الثقافة الفردية والاهتمام بقضايا النشر وتخفيض سعر الكتاب، فهناك عوامل كثيرة يجب مناقشتها»...

نبيل عبدالفتاح: رهاب خوف السلطة

عن الجدل الدائر حول ما إذا كان معرض القاهرة الدولى للكتاب قد شكل فى مرحلة من تاريخه ساحة صدام فكرى حقيقي، أم أن صورة الماضى يجرى تضخيمها اليوم.. قال الباحث والكاتب الصحفى د. نبيل عبد الفتاح إن معرض القاهرة للكتاب منذ نشأته هو أحد الأشكال المستعارة من التقاليد الغربية، وجزء من اهتمام الدولة بالثقافة فى مصر، ضمن ظاهرة تسليع الثقافة وفق المعنى السوسيولوجى فى سياقات تطور الرأسمالية الغربية، وذلك احتفاءً بالإنتاج الفكرى والإبداعى فى عديد مجالات العلوم الاجتماعية مثل الفلسفة والاجتماع والقانون والأدب إلى آخره.. وهى ظاهرة باتت جزءا لا يتجزأ من منطق ، وقوانين السوق الرأسمالي، بما فيه السينما والصحافة، وتداخلهما مع شركات العلاقات العامة فى الولايات المتحدة، ثم تمدد ذلك إلى أوروبا.. السوق الثقافى والسلع الثقافية – وفق السوسيولوجيا الفرنسية وغيرها – هى جزء من طبيعة النظام الرأسمالى لترويج الإنتاج الثقافى والفنى وذلك كى تلقى ذيوعا ورواجًا، مع بعض التراجع النسبى فى ظل سياقات انفجار الثورة الرقمية والذكاء الاصطناعى التوليدي، إلا أن ذلك لا يعنى أنها معارض فى مجتمعات الثقافة فيها بالغة الأهمية من قطاعات واسعة من مواطنيها ،، وتشكل الجماعات القرائية قوة مؤثرة على سوق النشر على تعددها، واختلاف ميولها وذائقاتها القرائية وتفضيلاتها المتعددة.

وأضاف أن الثقافة جزء لا يتجزأ من تفاصيل أنماط الحياة فى المجتمعات الأكثر تقدما، وأيضا فى بلدان أخرى فى آسيا ومنها اليابان والهند والصين وكوريا الجنوبية وسنغافورة .. واستمدادنا فكرة معرض الكتاب من التقاليد الأوروبية والأمريكية إيجابى تماما، وتم تحقيق إنجازات كبيرة من خلال معارض الكتب فى مصر منذ نشأتها وربما حتى نهاية عصر مبارك وما بعده إلا قليلا. يمكن القول إن نظام المعرض الكتابى الغربى كان ولا يزال فى إطار نظم ليبرالية تمثيلية تكرست فيها حرية الفكر والعقل النقدى والرأى والبحث وحرية الضمير والتدين والاعتقاد والتعبير، وبالتالى أثر ذلك تأثيرا كبيرًا فى حيوية معارض الكتب الكبرى بل وغيرها فى هذه المجتمعات الأكثر تقدما..

وأوضح أن الوضع فى بلادنا مختلف لأن معارض الكتب هى جزء من سياقات تغيرات نظام يوليو ١٩٥٢، خاصة فى عهدى السادات ومبارك، التى كانت محاطة ببعض من رهابُ الخوف من جانب السلطة السياسية الحاكمة ولا تزال تجاه الفكر النقدى الحر، والاراء والكتب التى تحاول تجاوز التابوهات السائدة وذلك من حيث تحديد التنظيم موضوعات المعرض السنوية لاسيما السياسية وخطوطها الحمراء. لاشك أن ذلك له اثره على تنظيم الندوات والموضوعات والشخصيات التى يتم دعوتها، وفى بعض الأحيان كان يتم منع بعض الأفكار أو حجبها على الأقل، ثم الشخصيات الفكرية البارزة المدعوة إلى مثل هذه الندوات فى المراحل الأولى من المعرض.. وأيضا فى ظل عصر مبارك، لاسيما فى نهايته حيث طرحت قضايا بالغة الأهمية وتمت دعوة بعض الشخصيات المصرية والعربية البارزة.

وأشار إلى أنه من الملاحظ حتى فى المجتمعات المتخلفة أن الرقابة على الأفكار والكتب تكسب مثل هذه الأفكار المحجوبة قوة وذيوعا، وهذا درس هام من تاريخ الأنظمة الرقابية فى عالمنا، ويزداد العالم انكشافًا الآن مع الثورة الرقمية التى تؤدى سلبا إلى دفع بعض الأفراد الرقميين أو الجماعات إلى نشر الأخبار الكاذبة والأفكار السطحية.. وبالنسبة لنا فى عصر مبارك، وفى ظل الركود والجمود السياسي، تم فتح المجال نسبيا أمام بعض من حرية الكلام والكتابة، وذلك لتخفيض الغليان والغضب السياسي، وكان ذلك منعكسا على قضايا الكتابة فى الصحف القومية وفى الكتب، وتزايد نسبيا فى الصحف المعارضة وفى بعض سياسات النشر فى هيئات وزارة الثقافة، ومن ثم انعكس ذلك إيجابيا على ندوات معرض الكتاب، وخاصة نوعية القضايا التى تم طرحها فى المقهى الثقافى على سبيل المثال أيام سمير سرحان رغم انتقادات المثقفين له، وفى الندوات العامة والشخصيات التى كان يتم دعوتها فى هذا الإطار.

وقال نبيل عبدالفتاح:

فى تقديرى لم يكن هناك صدام فكري، وإنما جدل من أطراف سياسية ودينية مختلفة تحت مفهوم الحوار الذى تحول إلى سجالات ع ارمة، وأيضا لأن الواقع كان يشهدها، ولا بأس فى ذلك فى ظل محاولات، أو سياسة تخفيض الغضب الاجتماعى والسياسي.

وأضاف أن ظاهرة تضخيم صورة الماضى هى جزء من مشاكل العقل العام مصريًا، بل وعقل من يطلق عليهم مجازًا المثقفين. – والاستثناءات محدودة – ، وهو إضفاء بعض من النزعة الأيقونية على بعض المفكرين والمبدعين المصريين، وذلك استلهامًا للمرحلة شبه الليبرالية وغيرها فى ظل الناصرية. بعض من هذه النزعة الأيقونية والتمجيدية للماضى تعود إلى تمجيد النزعة القومية المصرية، وهى جزء من تقاليد التمركز حول الذات القومية واستعلائها على بعض دول المنطقة قبل وبعد الاستقلال الوطنى عن الاستعمار الغربي، وترجع أيضا إلى تصورات الأجيال الأكبر سنًا عن زمانهم ونمط حياتهم فى مقارنة مع الأجيال الشابة بعدهم، وما كان يطلق عليه فى اللغة الشائعة «حلاوة زمان» و«الزمان الجميل» من منظور هذه الأجيال، وهى دلالة على بعض من العقل النقلى العام وتوارى العقل النقدى فى المجال العام والحياة الثقافية.

وأكد أن من الملاحظ أيضا تزايد نزعة تضخيم الماضى وتحولها إلى مرض اجتماعى وفكري، وتتفاقم فى ظل أزمات ممتدة، ويصبح تضخيم الماضى أيًا كانت مراحله بمثابة ملجأ لخلق حالة من التوازن السوسيو نفسى فى مواجهة أزمات الحاضر. بعضهم يلجأ إلى تضخيم الماضى كآداة للنقد السياسى فى كل مرحلة لا يجدون فيها مجالا للنقد والتعبير عما يجرى أمامهم وحولهم من سياسات. نعم، هناك بعض من التفكير الأيقونى والمؤسطر لماضى معرض الكتاب وقضاياه وأشخاصه، لكن ليس معنى ذلك أن هذا الماضى صالح، وأيقوناته المؤسطرة صالحة لعالم جديد ومختلف وفى طور التحول، ونحن بعيدون عنه ، وآخرون أيضًا فى هذه المنطقة من العالم.

وعن المناظرات مثل الغزالى وفرج فودة، قال إن المناظرات، والأحرى السجالات، جاءت من أعطاف تقديرات بعضُ دوائر السلطة السياسية ولم تكن خارجة عنها، ولأسباب سياسية محضة... المراقبة هى فعل الأجهزة المختصة فى سياق تقديراتها للحدث ذاته، فهى رقابة بعدية، ومن ثم يتم فى عديد الأحيان الخلط بين المراقبة والسيطرة على الفعل الثقافي، وذلك ناتج عن أحداث انتفاضة يناير الشعبية الكبرى فى ٢٥ يناير٢٠١١ ، وما بعدها، فى ظل حكم جماعة الإخوان والسلفيين وما بعدهم، نظرًا لتقديرات ذات طبيعة سياسية.

وأضاف أن بعض هذه التغيرات تعود إلى حلول عقل أيضا وزاري، ربما يكون مختلفًا عن الأجيال السابقة ذات الخبرات السياسية وقدرتها على التعامل مع القضايا السجالية الساخنة فى الواقع المصري، وأيضا على احتواء أى آثار لها ذات طابع سياسى وأمني. مرجع ذلك أيضًا أن العقل الثقافى لبعض وزراء الثقافة يميل إلى الحذر الشديد وبعض من الخوف من انعكاسات الجدل والسجال الحر على مواقعهم الوزارية أو البيروقراطية، وهى سياسة رهابُ الخوف والحذر، تجعل أى انفتاح على الآراء الأخرى التى تسود المجتمع، سواء على المستوى الفعلى أو على مستوى الحياة الرقمية يمثل خطرا على مواقع بعضهم الوزارية ..

وقال إن مسؤولية اختيار شخصيات المعرض والضيوف والموضوعات هى من اختيارات تشكيلات أعضاء الهيئة العليا للمعرض التى يشكلها الوزراء، ونظرًا لخلفيات تكوين وخبرات بعضهم واختياراتهم لرؤساء هيئة الكتاب، غالبًا ما يميلون إلى اختيارات آمنة سياسيًا لهم حتى لا تكون سببا فى «رفدهم» فى أول تعديل وزاري.. اختيارات الأسماء تميل إلى شخصيات بعضها مهم، وهم قلة قليلة بعد يناير، أو لعلاقات مع بيروقراطيات الأجهزة الثقافية فى دول النفط العربية، أو لحدود معرفة الوزراء ورؤساء الهيئة المتعاقبين بأهم رموز الفكر والإبداع العربي، خاصة أن غالبهم جاء من بعض كليات، الآداب فى الجامعات المصرية، وتفضيلاتهم للأدباء والأدبيات وعلى اختياراتهم لبعض من كبار المفكرين، وخاصة من المنطقة المغاربية ونسيان مفكرى وأدباء السودان واليمن .. الخ .

وأضاف أن تراجع حضور الجمهور للندوات يعود إلى أنه رغم أن أكثر من خمسة ملايين زاروا المعرض العام الماضى وفق هيئة الكتاب، إلا أنه لا توجد دراسات سوسيو ثقافية حول جمهور المعرض عموما، ومستويات تعليمهم، ومن أى الفئات الاجتماعية، وما هى اختياراتهم من الكتب ومجالاتها، وتفضيلاتهم للموضوعات والمجالات، وأيضًا رأيهم فى الموضوعات النقاشية وأشخاصها، وفى التنظيم، وهى مهمة يفترض أن تقوم بها أحد أجهزة الوزارة أو جهة بحثية مختصة تكلفها القيام بها.

وأشار إلى وجود تغيرات مختلفة فى الحوافز المحركة للجمهور وانتمائه الاجتماعى فى الذهاب للمعرض، خاصة بعد نقله من موقعه القديم بأرض المعارض، وارتفاع أسعار الكتب، وأيضًا أسعار الخدمات التى يقدمها القطاع الخاص.. جزء من الجمهور يذهب مع أولاده كنمط من التنزه، وبعضهم من أثرياء وأبناء الطبقة الوسطى العليا والوسطى الوسطى ومن سكان الكومباوندات، ويذهبون بالعربات الخاصة أو عربات الأجرة وشركاتها، ولديهم القدرة الشرائية على الاستهلاك أو شراء بعض الكتب والروايات والمجموعات القصصية.

وأوضح أن جمهور الندوات تضاءل كثيرا جدا فى المعارض الماضية، لأن الموضوعات ليست حيوية، أو لأن جزءًا من الجمهور يستغل قاعات الندوات للراحة، أو لأن الندوات وموضوعاتها لا تناسب اهتماماته.. ومن هنا بات حضور الندوات، لا سيما حول الروايات والقصص، مقتصرًا على الكتاب والكاتبات وبعض ذويهم وأصدقائهم ومن بعض متابعيهم، وبات مع ثورة وسائل التواصل الاجتماعى صورة الكاتبة والكاتب مع أصدقائه وأسرته، والمناقشين أهم من النقاش النقدى حول كتبهم.

وأضاف أن الموضوعات باتت نمطية ومتراجعة إذا ما قورنت بندوات معارض تونس والمغرب، أو لبنان، أو أربيل وبغداد.

واختتم بالقول إن الأثر الحقيقى لأى معرض كتاب هو تفاعل قطاعات من الجمهور حول قضاياه وكتبه وشراء بعضها، وفق اهتماماته ومجاله، مشيرًا إلى أنه يلاحظ جليا كيف أثرت الثورة الرقمية والكتاب الرقمى على الورقي، والندوات على الساحة الرقمية، والبودكاست على عيون جموع المهتمين بالثقافة على وسائل التواصل الاجتماعى من بعض جيل واى وزد، وستتراجع من ثم بعض الاهتمامات بالمعارض والندوات على الواقع الفعلى مع جيل ألفا ثم بيتا فى المستقبل القريب والمتوسط، فى ظل التمدد فائق السرعة للذكاء الاصطناعى التوليدي...

خاتمة

فى النهاية، ما جرى لمعرض القاهرة الدولى للكتاب ليس مجرد تراجع تنظيمى أو تغيير فى موقع أو جمهور، بل هو انعكاس دقيق لتحول الدولة نفسها وللعلاقة بين السلطة والثقافة والمثقف.. ما كان يوما مساحة حية للنقاش والصراع الفكري، صار فعالية منظمة، بلا مخاطرة، بلا سؤال، وبلا جمهور حقيقى يشارك... المعرض الذى شهد مناظرات جريئة وأصواتا قوية، أصبح اليوم واجهة مطمئنة، تعرض الكتب وتباع بلا روح، وتغيب فيها وظيفة الثقافة الحقيقية: إثارة الفكر، طرح الأسئلة، وصناعة وعي...

ولذلك، قراءة التاريخ والنقد الذى يقدمه المثقفون مثل عمار على حسن، مصطفى الفقي، ونبيل عبد الفتاح، لا تكشف فقط عن ماضى مضى، بل تدعونا للتفكير فيما إذا كان ممكن إعادة الحياة لهذا المعرض، واستعادة دوره كمكان للنقاش الحر، ومساحة للمثقف والجمهور على حد سواء، حيث تطرح الأفكار وتختبر وتناقش، بعيدا عن أى قيود تمنعها من أن تكون ثقافة حقيقية، لا مجرد عرض بلا معنى...

عمار على حسن: «الرقابة أصبحت معروفة... والمثقفون يستبعدون لأن السلطة لا تحتمل الأصوات المزعجة»

نبيل عبد الفتاح: معرض القاهرة للكتاب حاليا نتاج حسابات السلطة والسوق والعصبُ الأدبية والرقمية

مصطفى الفقي: من منارة للحوار الحر إلى مناسبة اجتماعية... المعرض يحتاج إلى استعادة دوره الثقافى والفكري

تحقيق: مادونا شوقي